

فعلاً، ومُسقطين له عن الترجمات أخرى، وناظرين محمداً غيره ثالثة دون حجة عليه إلا أنه غير إسرائيلي، وقد جاء بما لا تهوى أنفسهم، وهو مذكور باسمه ورسمه ومولده ونسبه وحسبه ولكن لا حياة لمن تُنادي.

وجواباً عن سؤال: مهما بلغت البشارات الكتابية بحق الرسول ﷺ واضحة، لم تأت بمعرفة له كما يُعرف الأبناء، فإن هذه حسية لا ريب فيها، وتلك بالاسم والمواصفة وقد تعترضها ريبة؟

نقول: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ دون «عرفوه» مما يدل على معرفة لاحقة بعد ظهوره بآيات صدقة فإنها كافية لتصديقه رسولاً مهما لم تكن هناك معرفة سابقة، وحين تجتمعان لأهل الكتاب في مثلث: البشارات الكتابية - مماثلة الوحي الكتابي في قرآنه - بينات رسالته، فهم - إذاً - يعرفونه كما يعرفون أبناءهم دون أية ريبة وشبهة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾ الناصع اللامع ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق وأنهم كاتموه.

وقد جاء في الأصل العبراني من كتاب هوشع الآية (٧): «بائوا يمي هفقوداه بائوا يمي هشلوم يدعو بيسرائل إويل هنجابي مشوكاغ إيش هاروح عل رب عونحا ورباه مسطماه»:

«تأتي أيام التمييز، تأتي أيام الجزاء سيعلم إسرائيل أن النبي السفية ورجل الروح مجنون لكثرة إثمك وشدة الحنق» - أجل ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٥١﴾ وما هو إلا ذكرٌ للعالمين ﴿٥٢﴾^(١)! وقد جاءت في ترجمة أخرى عنها: «بنو إسرائيل يعلمون ويعرفون أن النبي الأمي المصروع صاحب روح إلهامي وصاحب الوحي» وقد قال ربي حليم ويطال في كتابه «عصحييم» إن القصد من النبي الأمي هنا هو محمد بن عبد الله الذي بعث في زمن عبد الله السلام.

(١) سورة القلم، الآيتان: ٥١، ٥٢.

ويا لعبد الله السلام من سلام حين يُجيب السائل عن هذه الآية: «لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني إذ رأيته مع الصبيان وأنا أشدُّ معرفةً بمحمد مني بابني...»^(١).

أجل وهم «يعرفون محمداً والولاية في التوراة والإنجيل كما يعرفون أبناءهم في منازلهم»^(٢).

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(١٤٧):

وليس ذلك الخطاب - كأمثاله - يعني أن الرسول ﷺ - وعوداً بالله -

(١) الدر المنثور ١: ١٤٧ - أخرج الثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس

قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام قد أنزل الله على نبيه ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فكيف يا عبد الله هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام يا عمر: . . . فقال عمر كيف ذلك؟ قال: إنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله في كتابنا ولا أدري ما تصنع النساء، فقال له عمر: وفقك الله يا بن سلام.

وفيه أخرج الطبراني عن سلمان الفارسي قال: خرجت أبتغي الدين ف وقعت في الرهبان بقايا أهل الكتاب قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فكانوا يقولون: هذا زمان نبي قد أطل يخرج من أرض العرب له علامات من ذلك شامة مدورة بين كتفيه خاتم النبوة.

(٢) نور الثقلين ١: ١٣٨ في أصول الكافي عن الأصمغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث

طويل وفيه يقول: فأما أصحاب المشأمة فهم اليهود والنصارى يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ﴿البقرة: ١٢١﴾ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿البقرة:

١٤٧﴾ أنك الرسول إليهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وفيه في تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام

قال: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ ﴿البقرة: ١٤٦﴾ يعني رسول الله ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ﴿البقرة: ١٤٦﴾ لأن الله ﷻ قد

أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزيور صفة محمد ﷺ وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجرته وهو قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾

﴿الفتح: ٢٩﴾ فهذه صفة رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل وصفة أصحابه، فلما بعثه الله ﷻ عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾

﴿البقرة: ٨٩﴾.

كان من المُمْتَرِينَ فِي الْحَقِّ مِنْ رَبِّهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ تَثْبِيتٌ، وَلِلْمُتَمَتِّينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ تَثْبِيبٌ، وَلِكُلِّ دَعَايَةٍ ضَالَّةٍ تَمُوتُ وَتَفْوِيتٌ.

﴿الْحَقُّ﴾ كَلِمَةٌ مِنْ رَبِّكَ ﴿﴾ الْحَقُّ الرِّسَالِيُّ بِالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ الَّذِي هُوَ كُلُّ الْحَقِّ، الْمَحْلُوقِ عَلَى كُلِّ حَقٍّ، إِنَّهُ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لَا سِوَاهُ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾ فِيهِ، وَذَلِكَ إِحْيَاءٌ صَارِمٌ إِلَى مَنْ وَرَاءَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَثْبِيتًا، وَالْيَاكُوفِينَ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ تَثْبِيبًا، ثُمَّ وَمَتَّعَلَّقُ الْإِمْتِرَاءِ لَيْسَ يَخْتَصُّ بِأَصْلِ رِسَالَتِهِ، أَمْ وَقَبْلَتِهِ، بَلْ وَأَنْهَمُ يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهَمَّ يَعْلَمُونَ، إِذْ كَانُوا يَرْتَابُونَ فِيهِ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، أَمْ هُمْ شَاكُونَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّينَ﴾ أَنْهَمُ يَعْرِفُونَكَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَأَنْهَمُ يَكْتُمُونَ حَقَّكَ وَهَمَّ يَعْلَمُونَ.

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨):

هنا احتمالات حسب عديد الاحتمالات أفضلها جمعها ما لم تُطارد أدب اللفظ والمعنى: ﴿وَلِكُلِّ﴾ من الناس: مُلْحِدِينَ وَمُشْرِكِينَ وَكِتَابِيِّينَ وَمُسْلِمِينَ - أَمْ «لِكُلِّ» مِنَ الثَّلَاثَةِ الْآخِرِينَ، أَوْ الْآخِرِينَ، أَمْ الْمُسْلِمِينَ. ﴿وِجْهَةٌ﴾ قَلْبِيَّةٌ أَوْ قَالِيَّةٌ، فَالثَّانِيَّةُ هِيَ الْقِبْلَةُ لِدَعَاءِ وَصَلَاةٍ، وَالْأُولَى هِيَ لِكُلِّ الْحَالَاتِ وَالصَّلَاتِ.

﴿هُوَ﴾ اللَّهُ ﴿مُؤَلِّيًا﴾ أَيَّهَا، أَمْ ﴿هُوَ﴾ صَاحِبُ الْوِجْهَةِ مُوَلِّيًا نَفْسَهُ أَيَّهَا، وَهَذِهِ سِتَّةٌ عَشْرٌ وَجْهًا فِي الْوِجْهَةِ الْمَوْلَاةِ، تَضْرِبُ فِي اسْتِبَاقِ الْخَيْرَاتِ مَادَةً وَمُدَّةً وَعِدَّةً وَعُدَّةً فَهِيَ (٦٤) اِحْتِمَالًا، وَالْأَصْلُ فِي مَعَارِكِ الْوِجْهَاتِ وَالِاتِّجَاهَاتِ هُوَ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فِي كُلِّ الْمَجَالَاتِ، فَمَهْمَا كَانَتْ وَجْهَةٌ الْمُلْحِدِينَ الْمَادِيِّينَ هِيَ الْمَادَةُ قَلْبًا وَقَالِبًا، وَوِجْهَةُ الْمَشْرِكِينَ - كَذَلِكَ - هِيَ الْآلِهَةُ الْمُخْتَلِفَةُ الْمُخْتَلَفَةُ، وَوِجْهَةُ الْكِتَابِيِّينَ قِبْلَةٌ هِيَ الْقُدْسُ وَالْمَشْرِقُ، وَرُوحِيَّةٌ هِيَ مُخْتَلَفُ اتِّجَاهَاتِهِمْ فِي شَرْعَةِ اللَّهِ، وَوِجْهَةُ الْمُسْلِمِينَ كَقِبْلَةِ قُدْسًا

لفترة وكعبة على طول الخط، وفي كل جهات حسب مختلف الواجهات في المعمورة وسواها، والوجهة الروحية حسب مختلف المذاهب والاجتهادات ﴿هُوَ﴾ الله ﴿مَوْلِيَّهَا﴾ تكويناً وتشريعاً، و﴿هُوَ﴾ صاحبها ﴿مَوْلِيَّهَا﴾ اختياراً دونما اضطرار...

﴿فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ و﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(١) في ذلك المسرح الواسع الحافل بمختلف الوجهات والواجهات، و﴿الْخَيْرَاتِ﴾ هي التي يوليها الله إياكم دون سواه، فاجعلوا الحياة ميدان سباق في الخيرات كلها، في كل وجهة واتجاهة قلبية وقالبية، استباقاً في موادها ومُددها وعددها وعُددها، فإن استباق الخيرات والمسارعة فيها هي بعدها كأصل أصيل في الحياة، فرضاً أو ندياً: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُلِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾^(٣).

إن استباق الخيرات والمُسارعة فيها أصل حيوي تحلّق على كافة النشاطات الصالحة للصالحين، يتسابقون في الخيرات ما استطاعوا، ويُسارعون فيها ما استطاعوا، ومن أفضل الخيرات الصلاة، واستباقها يعمّ ظاهرها وباطنها وقبيلتها كما هو مولّيها، وزمانها ومكانها كما أمر الله، مجردة عن كافة الصّلات إلا بالله، وعن كافة النزعات إلا نزعة الله، وعن كافة الوجوه إلا وجه الله.

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦٢.

ذلك! ومن ثم يصرف الله المسلمين عن الانشغال بما يبثه أهل الكتاب وسواهم من دسائس وفتن في أقاويل وأفاعيل، يصرفهم إلى استباق الخيرات حيث مصير الكل إلى الله:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ مكاناً ومكانة ومُكنة وفعلية وفاعلية، وفي أية اتجاهة خيرة أو شريرة.

﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ مع بعضكم البعض ليوم الجمع، و﴿جَمِيعاً﴾ مع كل أعمالكم واتجاهاتكم ليوم الحساب، ولا يعزب عنه منكم ومن أعمالكم شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مجالات خاصة لـ ﴿يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ حشر أصحاب ألوية القائم المهدي من آل محمد ﷺ^(١) وهو من تأويل الآية، فإن تنزيلها هو الحشر العام ليوم القيام، ومن تأويلها هو الحشر الخاص، ولا ينبئك مثل خبير.

(١) نور الثقلين ١: ١٣٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سهل بن زياد عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى ﷺ: إني لأرجو أن تكون القائم من أهل أبيت محمد ﷺ - إلى قوله في وصفه وأنه غيره - يجتمع إليه أصحابه عدة أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض وذلك قول الله ﷻ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ [البقرة: ١٤٨] وفيه بإسناده إلى أبي خالد الكابلي عن سيد العابدين علي بن الحسين ﷺ قال: المفقودون عن فرسهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً عدة أهل بدر فيصبحون بمكة وهو قول الله ﷻ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ [البقرة: ١٤٨].

وبإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال قال أبو عبد الله ﷺ: لقد نزلت هذه الآية في المفتقدين من أصحاب القائم ﷺ ليفقدون عن فرسهم ليلاً فيصبحون بمكة وبعضهم يسير في السحاب يعرف اسمه واسم أبيه وحليته ونسبه، قال فقلت جعلت فداك: أيهم أعظم إيماناً؟ قال: الذي يسير في السحاب نهراً.

وفي تفسير القمي قال أبو جعفر ﷺ مثله وهو قول أمير المؤمنين ﷺ: هم المفقودون عن فرسهم وذلك قول الله ...

وفي المجمع قال الرضا ﷺ في الآية: وذلك والله أن لو قام قائمنا يجمع الله إليه جميع شيعتنا من جميع البلدان.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) :

﴿حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ هو - لأقل تقدير - خروجه عن مكة ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ (١) ﴿مِنْ قَرَيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجَكَ﴾ (٢) ، ولأكثر تقدير هو خروجه عن الحرم، فقد يصدق الخبر: «البيت قبله لأهل المسجد والمسجد قبله لأهل الحرم والحرم قبله للناس جميعاً» (٣) فإن الحرم هو شطر المسجد الحرام للخارج عنه، والضابطة إمكانية استقبال القبلة دون عُسرٍ ولا حَرَجٍ .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَأَخْشَوْنِي وَلَا تَمِمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠) :

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تتكرر في مسرح التحويل ثلاث مرات، ثم ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ مرتين، فلماذا هذا التكرار والصيغة نفس الصيغة دونما زائدة؟ عليه ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ وفي كل مرة من الثلاث فائدة زائدة تشبيهاً للقبلة الجديدة، ففي الأولى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ إخراجاً لذلك التحويل عن الباطل .

وفي الثانية ﴿وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾ تشبيهاً لحقه كأنه هو الحق لا سواه، فالقبلة المكية أصيلة، وقبلة القدس ابتلائية فرعية .

وفي الثالثة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ثم وفي هذا التكرار بمختلف التلحيقات تأكيد أكيد لتداوم هذه القبلة، وكما في تكرار ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥١ .

(٢) سورة محمد، الآية: ١٣ .

(٣) وسائل الشيعة أبواب القبلة ب ٣ ح ١ و ٣ .

تُكذِّبَانِ ﴿١﴾ عدّه مرات، تلحيفاً بها لكلّ مقطع من مقاطع البيان لذكر نعم الرحمان، ثم وفيها رابعة التأشير أن القبلة المكية هي الكعبة المباركة دون القدس، حيث الابتلاء يقدر بقدر الضرورة، ولا سيّما إذا كان فيه حجة على المبتلين، فالضرورات تقدر بقدرها، وما هي الضرورة الابتلائية أن يكون القدس هو القبلة منذ بزوغ الإسلام إلى أشهر في المدينة، خلقاً لجوّ الحجة على المؤمنين من قبل المشركين ﴿٢﴾ والكتابين، وصداً عن دخول العرب - الهائمين إلى الكعبة المباركة - في هذا الدين؟! فابتلائية قبلة القدس - بما تخلف حجة على المسلمين - وعلى رسول الإسلام أيضاً إذ هم عارفون من كتبهم أن قبلة هذا الرسول هي الكعبة المباركة، فلما صلى - لفترة - إلى القدس أخذوا يحتجون عليه أنه ليس هو الرسول الموعود! - هذه الابتلائية غير صالحة إلا لقضاء الابتلاء، وظرفه الصالح هو بداية العهد المدني، بلورة لصالح المؤمنين عن طالحهم، وما إضافة العهد المكي إلى أشهر الابتلاء المدني، إلا زيادة لحجة اليهود، إضافة إلى حجة العرب في رفضهم لهذا الدين.

و«الناس» هنا كما الناس في ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ هم السفهاء من الناس، مشركين وكتابين، فإن كلاً كان يحتج على الرسول والمسلمين ﴿مَا وَلَّهُمْ﴾.

وهنا ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء لجماعة خصوص منهم استمراراً لحجتهم على المسلمين ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَحْشَوْنِي﴾ فإن حجتهم داخضة عند

(١) سورة الرحمن، الآية: ١٣.

(٢) الدر المنثور ١: ١٤٨ - أخرج ابن جرير من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: لما صرف النبي ﷺ نحو الكعبة بعد صلاته إلى بيت المقدس قال المشركون من أهل مكة تحير على محمد دينه فتوجه بقلته إليكم وعلم أنكم أهدى منه سبيلاً ويوشك أن يدخل في دينكم فأنزل الله ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾.

ربهم، وذابطة بعد تحوُّل القبلة إلى الكعبة المباركة. ثم وفي ذلك التحويل إضافة إلى سلبية حجتهم إيجابية إتمام النعمة والاهتداء.

﴿وَلَأُنَبِّئَنَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فقبلة الكعبة إتمام للنعمة، واهتداء كما قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةٍ مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١).

وقد تحمل «لأتم وتهتدون» بشاراً لفتح مكة كما تحملها آية الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ . . .﴾ (٢).

ومن أهم النعم التامة الاعتصام بحبل الله جميعاً: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (٣).

ثم ومن أهمها في مظاهر العبودية الاتجاه إلى قبلة واحدة هي أول بيت وضع للناس، مثابة وأمناً وهدى وقياماً ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ (٤).

كلام فيه ختام حول القبلة:

القبلة هي هيئة خاصة للمقابلة، فهي تعم المستقبل اليه، فإن لكل هيئة خاصة للمقابلة، فشطر المسجد الحرام نص أم ظاهر كالنص في أن قبلة النائي عن مكة المعظمة هي ناحية المسجد الحرام ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ تحلق على ذلك الاستقبال أولاً لسكنة المعمورة كلها، ثم سكان سائر المعمورات، إلا أن شطر المسجد الحرام لهم هو الكرة الأرضية ككل، ولا يخص شطره، الناحية القاطعة له إلى الكعبة المباركة - فقط - سطح

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الفتح، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة الحج، الآية: ٢٨.

الأرضية، بل شطره في العمود الذي يربط الكون كله بسمواته وأرضيه، كما الكعبة المباركة ممتدة من ناحيتها فوق وتحت إلى أعماق السماوات.

ثم الداخل في مكة المكرمة، هل يستقبل - كما الخارج - شطر المسجد الحرام أم عينه؟ طبعاً عينه ما أمكن حيث الشطر قبله النائين كضابطة، وإلا فالأقرب إلى العين فالأقرب، دون شطره كضابطة^(١)... والداخل في المسجد الحرام يستقبل الكعبة المباركة من جوانبها، وندب الصلاة جماعة أو فرضها يقتضي صحة صلاة الجماعة الدائرية حول البيت بإمام واحد، ولو كانت محظورة لورد فيها نهي، وهل الداخل في البيت يصلي كالعادة إلى أي من جوانبها؟ قد يقال: لا، لأنه هو القبلة من خارجه دون جوفه، وقد ورد في الصحيح: «لا تصل المكتوبة في جوف الكعبة فإن رسول الله ﷺ لم يدخلها في حج ولا عمرة ولكنه دخلها في الفتح وصلى فيها ركعتين بين ميري العمودين ومعه أسامة بن زيد»^(٢)، وفي آخر: «لما

(١) في صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: يجزي التحري أبداً إذا لم يعلم أين وجه القبلة. (الوسائل أبواب القبلة ب ٦ ح ١).

وعن تفسير النعماني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] قال: معنى شطره نحوه إن كان مرئياً وبالذلائل والأعلام إن كان محجوباً، فلو علمت القبلة وجب استقبالها والتولي والتوجه إليها، ولو لم يكن الدليل عليها موجوداً حتى تستوي الجهات كلها فله أن يصلي باجتهاده حيث أحب واختار حتى يكون على يقين من الدلالات المنصوبة والعلامات الماثورة، فإن مال عن هذه الوجوه مع ما ذكرناه حتى يجعل الشرق غرباً والغرب شرقاً زال معنى اجتهاده وفسد حال اعتقاده. (الوسائل أبواب القبلة ب ٦ ح ٤).

(٢) الوسائل أبواب القبلة ب ١٧ ح ٣ و ١ صحيحتان فالصحيحة الأولى عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام والثانية عن محمد بن مسلم عن أحدهما قال: لا تصل المكتوبة في الكعبة، وأورده مثله في صحيح البخاري حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن سيف قال سمعت مجاهداً قال: أتى ابن عمر فقيل له: هذا رسول الله ﷺ دخل الكعبة، فقال ابن عمر: فأقبلت والنبى ﷺ قد خرج وأجد بلائاً قائماً بين البابين فسألت بلائاً فقلت: أصلى النبي ﷺ في الكعبة؟ قال: نعم ركعتين بين الساريتين اللتين على يساره إذا دخلت ثم خرج فصلّى.

دخل النبي ﷺ البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصلّ حتى خرج منه فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة وقال: هذه القبلة»^(١).

ولكن النهي عن الصلاة فيها هو أعمّ من التحريم والتنزيه، وتحريمه أيضاً أعم من أن جوفها ليست قبلة، مع العلم أنها أصل القبلة، وقد يعني النهي رعاية حرمة البيت، ورعاية الجماعة القائمة حول البيت، وكما تدل عليه الموثقة: «إذا حضرت المكتوبة وأنا في الكعبة أفأصليّ فيها؟ قال: صلّ»^(٢) إلا أن «هذه القبلة» تُعارض نصاً «قال صلّ» فالأحوط إن لم يكن الأقوى ترك الفريضة في جوفها، وإن كان الأشبه صحة الصلاة فيها فإن «هذه القبلة» لا تنفي كون جوفها أيضاً قبلة كما ظاهرها، كذلك والصلاة على سطح الكعبة، حيث العمود الأسطواني من مكان البيت قبلة في طرفيه إلى أعنان السماء، والاستلقاء على السطح استلغاءً لكون الأسطوانة قبلة، وتشكيك أو إلغاء لصحة صلوات الساكنين أو الكائنين في محلات أرفع من البيت!.

وترى إذا فقد العلم أو والظن بشرط المسجد الحرام، فهل يصليّ إلى أربع جهات لمرسلة يتيمة^(٣) لا توافق الكتاب ولا السنة؟ مع العلم أنه ليست عليه إلا صلاة واحدة حتى مع تقصيره في اجتهاد القبلة فضلاً عن قصوره! وحتى إذا أريد بذلك درك القبلة فصلوات ثلاث هي الكافية، فإن بين المشرق والمغرب قبلة!.

- (١) موثقة يونس بن يعقوب قال قلت لأبي عبد الله ﷺ إذا حضرت الصلاة المكتوبة . . .
 (٢) صحيح البخاري حدثنا إسحاق بن نصر قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا ابن جريح عن عطاء قال سمعت ابن عباس قال لما دخل . . .
 (٣) هي مرسلة قريش عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله ﷺ قال قلت: جعلت فداك إن هؤلاء المخالفين علينا يقولون: إذا أطبقت السماء علينا أو أظلمت فلم نعرف السماء كنا وأنتم سواء في الاجتهاد؟ فقال: ليس كما يقولون، إذا كان ذلك فليصلّ لأربعة وجوه.
 وعن الفقيه «وقد روي فيمن لا يهتدي إلى القبلة في مفازة أنه يصليّ إلى أربعة جوانب» أقول: وأظنها هي نفس مرسلة خراش.